الصُّوفىُّ ؟

إنه من إذا نطق أبان نطقه عن الحقائق ، وإن سكت نطقت عنه الجوارح بقطع العلائق .

الصوفية ؟

إنهم قوم آثروا الله على كل شىء ؛ فآثرهم الله على كل شىء .

ـ من أين جاء هذا الاسم ؟

لقد سئل ذو النون : لمَ لزمتمْ هذا الاسم ـ اسم التصوف ـ وهل هو مشتق من معنى ، أو لقب ؟

فقال :

« قيل: إن اسم الصوفية كان فى الأصل «صَفَوِيَّة » من الصفاء، وذلك أنهم يسترون العمل ويكتمونه فلا يشوبه الرياء.

وقيل: إنهم كانوا فى الأصل «صُفَّتِيَّة» ، مأخوذ من أهل«الصُّفَّة» .

وقيل : إنه اسم لزمهم على غير اشتقاق ، وإنما هو لمن تَبَتَّل منقطعاً إلى الله من العباد، فأخلص المجاهدة.

وقيل: إنه عَلَمٌ غير مشتق من نسبة ولا عمل.

وكانوا يلبسون الصوف ؛ لأنه أدْعَى إلى التقشف ، وأشبه بلباس الصالحين.

وكان التصوف سمة المجتهدين فى العبادة » .

الطريق :

من طرائف ذى النون أنه سئل عن السَّفلة من هم ؟

فقال :

« **مَنْ لا يعرف الطريق إلى الله تعالى ، ولا يتعرَّفه** » .

والقرب من الله سبحانه وتعالى سعادة .

ويقول ذو النون :

« **بأول قدم تطلبه تدركه وتجده** » .

لابد من البدء بالطلب ، والطلب فى إخلاص وصدق ، وهذا طريق الإنابة .

وأما طريق الاجتباء فلا شروط له . إن الله سبحانه وتعالى يقول :

﴿ **اللَّهُ يَجْتَبِى إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ** ﴾(١) .

للتصوف ـ إذن ـ طريقان : **طريق الاجتباء ، وطريق الإنابة** . وعن ذلك يعبر ذو النون فيقول ـ فيما رواه يوسف بن الحسين ـ :

سمعت ذا النون يقول :

« **العطايا مواهب ، والطاعات مكاسب ، والناس رجلان :**

دَارِجٌ ، ووَاصِلٌ .

.. فالدارج سائر على طريق الإيمان.

.. والواصل طائر بقوة المعرفة.

.. ولكلٍّ دليل ؛ فدليل الإيمان: العلم. ودليل المعرفة : الله تعالى .

.. فمتى يلحق السائر الطائر » .

ويلخص ذو النون الطريق إلى الله ، والسعادة التى تتأتى عنه فى إيجاز محكم جميل ، فيقول :

---

(١) سورة الشورى : ١٣ .

« إن المؤمن إذا آمن بالله واستحكم إيمانه خـاف الله، فإذا خاف الله تولَّدت من الخوف هيـبة الله ، فإذا استـقرت عندد درجة الهيـبة دامت طاعتـه لربه ، فإذا أطاع تولَّد من الطاعة الرجـاء. فإذا استقـرت درجة الرجاء تولَّدت من قِبَل الرجاء المحبة ، فإذا استحكمت معانى المحبة فى قلبه استتبعت درجة الشـوق ، فإذا اشتاق أدَّاه شوقه إلى الأنس بالله، فإذا أنس بالله اطمأن إلى الله، فإذا اطمأن إلى الله كان ليله فى نعيم ، ونهاره فى نعيم ، وسرُّه فى نعيم، وعلانيته فى نعيم » .

ومدار الطريق ـ فيما يرى ذو النون ـ على أربع :

« حب الجليل ، وبغض الفـانى القليل ، واتِّبـاع التنزيل ، وخـوف التحويل » .

وينبغى للمريد أن يُحكم الأصل ، ثم يطلب الفرع ، كيف يسأل عن الزهد وهو لم يُحكم الورع ، وقبل الورع التوبة ، ولربما نظرت إلى الرجل يسأل عن الرضا وهو لا يدرى ما التنوع .

وإننا لا نتحدث هنا عن طريق الاجتباء فإنه فى حقيقة الأمر ليس طريقاً بالمعنى العادى :

إنه جذبة من جذبات الحق فى لحظة بعدها يتبدل المرء حالاً بعد حال ، ويدخل رحاب الحق ـ جل وعلا ـ عبداً من عباده المخلصين .

لقد اختارته العناية منذ الأزل ، وأدركته فى الوقت الذى اختارته الحكمة .

أما طريق الإنابة فهو الطريق بالمعنى العادى للكلمة ، ولابد فيه من الطلب ، فـإذا صـدقت النيـة فى الطلب وصـدقت العـزيمة جـاءت الهداية :

﴿ وَيَهْدِى إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾(١).

وإن قلَّة تأسُّف إنسان ـ كما يقول ذو النون ـ على الحق إنما تكون من قلة قَـدْر الحق عنده، فـإذا عـرف الإنسـان قَـدْر الحق فـإنه يسـعى فى طلبه.

ما هو أول القَدَم الصادق فى طلب الله سبحانه ؟

إنه الفرار ـ من كل شىء ـ إلى الله :

﴿ فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ ﴾(٢).

التوبة :

وأول مقام فى الفرار إلى الله التوبة الصادقة، حتى يبدأ المسير إلى الله على طُهْر، وحتى يكون العهد مع الله على ترك المعاصى.

وتوبة العوام من الذنوب، وتوبة الخواص تكون من الغفلة.

يقول ذو النون :

« لله عبادٌ تركوا الذنوب حياءً من كـرمه ، بعد أن تركوها خوفاً من عقوبته ».

« ولو قال لك الله تعالى : افعل ما شئت ، فلست آخذك بذنب . لكان ينبغى أن يزيدك كـرمه استحيـاءً منه ، وتركاً لمعصيـته ، إن كنت حراً كريماً عبداً شكوراً .. فكيف وقد حذَّرك ؟ ».

وهذا الذى يقوله ذو النون إنما يستلهم فيه قول رسول الله ﷺ :

« نِعْمَ العَبْدُ صُهَيْبٌ لو لم يَخَفِ اللهَ لم يَعْصِه ».

لم يعصه حياء منه، وهذا من صفات أصحاب النفوس الكريمة.

---

(١) سورة الشورى : ١٣.　　(٢) سورة الذاريات : ٥٠.

المُريد:

ومنذ أن يبدأ الإنسان الطريق بالتوبة الصادقة، يسمى « مُريداً » .

ويوالى ذو النون النصح للمريد . . ومن كلامه :

« إياك أن تكون للمعرفة مُدَّعياً ، أو بالزهد محترفاً ، أو بالعبادة متعلِّقاً ، وفرَّ من كل شيء إلى ربك » .

وتحذير ذى النون من التعلق بالعبادة إنما هو توجيه إلى أن الرقىَّ فى مقامات القرب إنما مردُّه إلى الله سبحانه، لا إلى العبادة . . ولذلك يجب أن يكون تعلُّق المريد دائماً بالله، لا بأعماله .

وليس فى طريق الفرار إلى الله عقبات، وذلك أن الرزق مضمون والرزاق موجود ، يقول ذو النون معاتباً الذين لا يفرُّون إلى الله :

« إن الله رَزَقَنا قُوْتَنَا ، وكلَّفنا دونَ طاقتنا ، فلا بما رَزَقَنا اكتفينا ، ولا بما كلَّفنا ائتمرنا » .

وذو النون فى نصائحه للمريدين يحذِّرهم - باستمرار - « **الدنيا** » .

والدنيا فى عُرف الصوفية إنما هى الشهوات والأهواء ، وقد عبَّر الله سبحانه عنها بقوله :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ ﴾ (١) .

---

(١) سورة الحديد : ٢٠ .

وبقوله سبحانه :

﴿ **زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ** ﴾ (١) .

ويقول ذو النون :

« **استقرت منازل الدُّجَى، وثبتت حُجج الله على خَلْقه، فآخذٌ بحظه، ومُضَيِّعٌ لنفسه ، فمناره حكمته ، وحُجَّته كتابه ؛ فقامت الدنيا ببهجتها فأقعدت المريد ، وألْهَت الغافل ، فلا المريد طلب دواءه ، ولا الغافل عرف داءه.**

ثم خَصَّ الله خصائص من خلقه ، فعرَّفهم حكمته ، فنظروا من أعين القلوب إلى محجوب الغيوب ، فساحت أرواحهم فى ملكوت السماء ، ثم عادت إليهم بأطيب جنى ثمار السرور، فعند ذلك صيَّروا الدنيا معبرًا ، والآخرة منزلاً ، هِمَّتُهم وقلوبهم عند ربهم...ولن تفنى النفس إلا بالعلم بالله » .

وقد سئل عن الآفة التى يُخدع بها المريد عن الله ، فقال :

« **يُريه الألطاف والكرامات والآيات** » .

قيل له : يا أبا الفيض ، فَبِمَ يُخدع قبل وصوله إلى هذه الدرجة ؟

قال : « **بوطء الأعتاب، وتَعظيم النـاس له، والتوسع فى المجالس ، وكثرة الأتباع، فنعوذ بالله من مَكْرِه وخَدْعِه** » .

---

(١) سورة آل عمران : ١٤ .

قال : وسمعت ذا النون، وقد سئل :

ـ ما أساس قسوة القلب للمريد ؟

فقال :

« **ببحثه عن علوم رضيت نفسه بتعليمها دون استعمالها والوصول إلى حقائقها** » .

ومن أهم النواحى التى كان يهتم بها «ذو النون» ـ فى نصائحه للمريدين ـ هى « الادعاء » . .

فهو يقول مثلاً :

« **كل مدح محجوب بدعواه عن شهود الحق .. لأن الحق شاهد لأهل الحق ، لأن الله هو الحق ، وقوله الحق ، ولا يحتاج أن يدَّعى إذا كان الحق شاهداً له . فأما إذا كان غائباً فحينئذ يدَّعى وإنما تقع الدعوى للمحجوبين** » .

وقال :

« **من ادَّعى مقاماً حُجب به عن الله** » .

والمحققون لا يدَّعون . . يقول ذو النون :

« **كلَّتْ ألسنة المحقِّقين عن الدَّعَاوَى .. ونطقت ألسنة المدَّعِين بالدَّعَاوَى** » .

وينصح المريد بالتزام العبودية :

« **والعبودية: أن تكون عبدًا فى كل حال، كما هو ربك فى كل حال** » .

وإذا خرج مريد من حوزة الأدب يرجع إلى حيث شاء .

ولكى يستفيد المريد لابد له ـ مع الأدب ـ من التواضع . .

يقول ذو النون :

« **يا معشر المريدين : من أراد منكم الطريق فَلْيَلْقَ العلماء بإظهار الجهل ، والزهَّاد بإظهار الرغبة ، والعارفين بالصمت . وذلك : ليزيده العلماء علماً ، والزهاد زهداً ، والعارفون معرفة** » .

قال الله تعالى :

﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ** ﴾(١) .

ولقد حرص ذو النون ـ الحرص كله ـ أن يجعل طريق المريد أول الأمر طريقاً ربانياً ، فبيَّن المسالك والمهالك .

لقد بيَّن علامات الانحراف وعلامات القبول . . عن سعيد بن عثمان عن أبى الفيض ذى النون المصرى ، قال :

« **إن لله لَصفوةً من خَلْقه ، وإن لله لخيرةً من خَلْقه** » .

قيل له : يا أبا الفيض ، فما علامتهم ؟

قال :

« **إذا خلع العبد الراحة ، وأعطى المجهود فى الطاعة ، وأحبَّ سقوط المنزلة** » .

قيل له : يا أبا الفيض . . فما علامة إقبال الله ـ عز وجل ـ على العبد ؟

---

(١) سورة التوبة : ٦٠ .

قال :

«إذا رأيته صابراً، شاكرًا، ذاكرًا، فذلك علامة إقبال الله على العبد» .

قيل : وما علامة إعراض الله عن العبد ؟

قال :

« إذا رأيته ساهياً ، لاهيًا ، مُعْـرِضاً عن ذكر الله ، فذاك حين يُعرض الله عنه » .

ثم قال :

« وَيْحَكَ ، كَفَى بالمُعْرِضِ عن الله خسـراناً ، وهو يعلم أن الله مُقْبِلٌ عليه وهو مُعْرِضٌ عن ذكره » .

قيل له : يا أبا الفيض ، فما علامة الأنس بالله ؟

قال :

« إذا رأيتـه يُؤنِسُكَ بِخَلْقِه : فـإنه يُوحِشُكَ مِنْ نـفسِه .. وإذا رأيـته يُوحشكَ مِنْ خَلْقه : فإنه يُؤنِسكَ بنفسِه » .

ثم قال أبو الفيض :

« الدنيا والخَلْق لله عـبيد ، خَلَقَـهم للطاعة ، وضـمن لهم أرزاقهم ، ونَهاهم وحذَّرهم وأنذرهم ، فحرصـوا على ما نهاهم الله عنه ، وطلبوا الأرزاق ـ وقد ضمـنها الله لهم ـ فلا هم فى أرزاقهم اسـتزادوا ، ولا هم للطاعة استجابوا » .

ثم قال :

« عَـجَبـاً لِقُلُوبِكُمْ .. كَـيْفَ لا تَتَصـدَّع ؟!! .. ولأجـسَامِكُمْ .. كَـيْفَ لا تتضعضع ؟!!.. إذا كنتم تَسمعون ما أقول لكم وتعقلون !!» .

ومن أقواله :

« إن المريد إذا صدق سَعْيُهُ فيما بينه وبين الله حلاَّه فى صدور المؤمنين ، وحَلَّى ذكره فى أفواه المحسنين ؛ شغلهم شغلٌ يغلب على جميع الاشتغال ، وحبهم له يحول بين الأهل والمال » .

ويوجب ذو النون على المريد ألاَّ يقول شيئاً إلا إذا كان مستنداً إلى حجة من الكتاب والسنة ، وفى ذلك يقول :

« أشَدُّ المريدين نفاقاً : من لحظ لحظة ، أو نطق بكلمة بلا حجة استبانها فيما بينه وبين ربه » .

وقال :

« أخْفَى المريدين نفاقاً : من تكلم بكلمة ، أو عمل عملاً على سبيل الغفلة ، ثم سئل عن الحجة فى ذلك فاحتج بحجة لم تقع له قبل الفعل استنادًا عن الناس واستحساناً لقوله » .

ونختم فى هذا بهذه النصيحة التى يُسديها ذو النون للمريدين : عن العباس بن حمزة ، قال :

« دخلت على ذى النون وعنده نَفَرٌ من المريدين وهو يقول لهم :

« توسَّدوا الموت إذا نمتم ، واجعلوه نُصْبَ أعينكم إذا قمتم ، كونوا كأنكم لا حاجة لكم إلى الدنيا ولابد لكم من الآخرة » .

الذِّكْر :

إن المُريد ، بعد أن يأخذ على شيخه العهد على التوبة ، يبدأ ـ فيما يبدأ به ـ بالذكر .

والذكر فى عُرف القوم ركن مهم من الأركان التى لابد منها للقرب من الله سبحانه وتعالى.

ولقد أمر الله تعالى بالذكر، إنه سبحانه أمر بالذكر الكثير، ولم يحدد له وقتاً وإنما أطلقه إطلاقاً، فهو مطلوب فى الصباح، وفى المساء، وفى الآصال، وفى الضحى، وفى الليل، وفى كل وقت.

ولم يحدد الله سبحانه له حالة بعينها، فهو مطلوب إذا كان الإنسان قائماً، وإذا كان قاعداً، وإذا كان مضطجعاً.

وقد جعله الله من صفات ذوى الألباب.

ورتَّب الله عليه الكثير من الفوائد للعبد فى دنياه وفى أخراه.

والاستغفار من الذكر.. يقول الله سبحانه فى شأنه:

﴿ **وَاسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي رَحِيمٌ وَدُودٌ** ﴾(١).

ويقول سبحانه:

﴿ **اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝١٠ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝١١ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَارًا ۝١٢** ﴾(٢).

ويقول رسول الله ﷺ:

« **مَنْ لَزِمَ الاستغفارَ جعلَ الله له مِنْ كلِّ ضِيْقٍ مَخْرَجاً، ومِنْ كلِّ هَمٍّ فَرَجاً، ورزَقَهُ مِنْ حيثُ لا يَحْتَسِب** ».

---

(١) سورة هود: ٩٠.

(٢) سورة نوح: ١٠-١٢.

ويقول ـ صلوات الله وسلامه عليه ـ:

« أُعطيتُ أمانين لأمّتى » . . ثم تلا:

﴿ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴾(١).

ثم قال: « فإذا مضيت بقى الأمان الثانى: الاستغفار ».

وكثرة التسبيح من الوسائل المنجية، يقول سبحانه:

﴿ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ (١٤٣) لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴾(٢)

ويقول سبحانه:

﴿ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴾(٣).

والصلاة على رسول الله ﷺ من الذكر، وعنها يقول الشاعر:

إذَا كنتَ فى ضِيْقٍ وهَمٍّ وفَاقَةٍ وأَمْسَيْتَ مَكْروباً وأَصْبَحْتَ فى حَرَج
فَصَلِّ عَلَى المُخْتَارِ مِنْ آلِ هاشِمٍ كَثِيرًا ؛ فَإِنَّ اللهَ يَأتيكَ بالفَرَج

أما الفائدة الكبرى للذكر الصافى المخلص، فهى القرب من الله سبحانه.

والصوفية يستعملون الذكر للقرب من الله تعالى.

ولذى النون الكثير فيما يتعلق بالذكر. . إنه يقول:

---

(١) سورة الأنفال: ٣٣.
(٢) سورة الصافات: ١٤٣، ١٤٤.
(٣) سورة القلم: ٢٨.

« من القلوب قلوب تَستغفر قبل أن تُذنب؛ فتُثاب قبل أن تُطيع » .

ولقد سئل عن الذكر ، فقال :

« هو غيبة الذاكر عن الذكر » .

ويقول :

« من ذكر الله ذكرًا على الحقيقة ؛ نسى فى جنب ذكره كل شىء ، وحفظ الله عليه كل شىء ، وكان له عوضًا عن كل شىء » .

ومن كلام ذى النون :

« مَن استأنسَ بشىءٍ من الدنيا لم يجدْ صَافىَ لذَّة ذِكْر مَوْلاه » .

وقال أبو جعفر المغربى : سمعت ذا النون يقول :

« إذا أكرم الله عبداً ألزمه ذكره ، وألزمه بابه ، وتعرَّف إليه بالبر والفوائد ، ومدَّه من عنده بالزوائد ، ويصرف عنه أشغال الدنيا ، ويصرف عنه البلايا ، فيصير من خواص الله وأحبابه .. فطُوبَى له حياً وميتاً.

لو علم أبناء الدنيا بحظِّ المقرَّبين وتلذُّذ الذاكرين وسرور المحبِّين ؛ لماتوا كَمَدًا » (١) .

وقال ذو النون :

« من المحال أن تجد طعم ذكره ، ثم لا يشغلك به عما دونه » .

وكان ذو النون ينبه إلى أن من علامة إعراض الله عن العبد :

« أن تراه ساهياً ، لاهياً ، لاغياً ، مُعْرِضاً عن ذكر ربه .. تثقلُ عليه مُجَالَسَةُ الذاكرين » .

---

(١) أخرجه البيهقى .

وكان ينبه أيضًا إلى أن :

« **لكل قوم عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعُه عن ذكره** » .

وروى عن يوسف بن الحسين قال : سمعت ذا النون يقول :

« **لن ينال أحدٌ اليقينَ فى المعرفة والتوكل إلا بدوام ذكر الله بالقلب، وكثرة مناجاته ، وقطع ما شغل القلوب عن ذكر الله ، والله ولى المؤمنين** » .

الورع:

ونعود إلى التوبة من جديد ونتحدث عن آثارها . .

إن التوبة إذا صدقت استتبعت ـ لا محالة ـ الورع .

والورع هو تحرِّى الحلال فى كل شىء ، وله شأنه العظيم فى التقوى ، وفى تنوير القلب .

ولقد تحدث الرسول ﷺ عن تحرِّى الحلال متناسقاً مع القرآن الكريم فى ذلك :

عن عطاء عن ابن عباس قال : تليت هذه الآية عند النبى ﷺ :

﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى الأَرْضِ حَلالاً طَيِّبًا** ﴾(١) . فقام سعد بن أبى وقاص ، فقال : يا رسول الله ، أُدْعُ الله أن يجعلنى مستجاب الدعوة ، فقال ﷺ :

« **يا سَعْدُ ، أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدعوة ، والذى نَفْسُ محمد بيده ، إن الرجل ليقذفُ اللقمة الحرام فى جوفه ما يُتَقَبَّلُ منه أربعين يوماً ، وأيُّما عبدٍ نَبَتَ لحمه من السُّحْتِ والربا فالنار أَوْلَى به** » .

(١) سورة البقرة : ١٦٨ .

وعن أبى هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ:

« يا أيُّها النـاس .. إن الله طيِّبٌ ، لا يقـبل إلا طيِّـباً .. وإن الله أمر المؤمنين بما أمر به المرسلين ، فقال:

﴿يَا أَيُّهَـا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَـالِحًا إِنِّي بِمَـا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾(١).

وقال:

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ ﴾(٢).

ثم ذكر الرجلَ يُطيلُ السَّفـرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ ، ومطعمه حـرام ، ومشربه حرام ، وملبسه حرام ، وغُذِّى بالحرام ، يمدُّ يديه إلى السماء : يا رب يا رب ، فأنَّى يُستجاب لذلك »(٣).

ويقول ذو النون:

« من لم يفتِّش على الرغيفين من الحلال لا يفلح فى طريق الله ـ عزَّ وجلَّ » .

وذو النون ـ متابعاً للقرآن والسنة ـ لا يقصر الورع على الجانب المادى، وإنما يعممه على كل شىء، فقد قال له رجل مرة:

ـ إن امرأتى تقرأ عليك السلام . . فقال ﷺ:

« لا تُقرئونا من النساء السلام » .

إنه يحب أن يعيش فى سلام مع قلبه ونفسه.

---

(١) سورة المؤمنون: ٥١. (٢) سورة البقرة: ١٧٢.

(٣) أخرجه مسلم فى صحيحه، والترمذى فى جامعه، والإمام أحمد فى مسنده.

على أن أمر الورع المادى سهل بالنسبة لذى النون ومن اتبعه على طريقته، لقد وصل ذو النون بالحياة المادية بالنسبة للمريد إلى حدها الأدنى، إنه يقول للمريد:

« من طلب مع الخبز ملحًا يأكله لم يفلح فى الطريق أبداً ».

وكان ذو النون يعنى بذلك ألاَّ يتكلف الإنسان شيئاً، فإذا وجد الخبز الحلال ففيه الكفاية، ولله الحمد والشكر، وإذا وجد ـ دون طلب ـ مع الخبز شيئاً آخر فإن فضل الله عظيم وله الحمد والشكر.

وكان ذو النون يحذِّر دائماً من الجرى وراء شهوة الطعام، إنه يقول:

« لا تسكنُ الحكمةُ مَعِدَةً مُلئتْ طعاماً ».

وكان يقول:

« ما شبعتَ من الطعام ـ قَطُّ ـ إلا عصيتَ أو هممتَ بمعصية ».

ولكن الأمر الشاق فى الورع هو الجانب الروحى، وهذا لابد له من جهاد النفس حتى تتزكى:

﴿ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا ﴾(١).

وهذا النوع من الجهاد مارسه ذو النون حتى تغلَّب على نفسه وهواه، وسيطر ـ بفضل الله ـ عليهما، وقال كلمته التى صدَّرنا بها هذا الكتاب:

« كيفَ لا أبتهجُ بكَ سروراً، وقد كنتُ أكْدَحُ ببابكَ حتى جعلتنى من أهل التوحيد ».

---

(١) سورة الشمس: ٩.

الزهـد:

وإذا صـدق الإنسـان فى الـورع قـاده ذلك إلى الزهد، والزهد هو التحقق بقوله تعالى:

﴿ **لِكَيْلا تَأْسَوْا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ** ﴾(١).

إنه عـدم تعلق القلب بالدنيـا، أو هو سيطرة الإنسـان على دنياه بحيث لا تستعبده . . إنه:

ألاَّ يملكك شيء ولا يستعبدك شيء.

لقد تحدث ذو النون عن الزهد، وبيَّن بعض تعريفات الناس له، فقال:

« اعلموا ـ إخوانى ـ أن الناس قد تكلموا فى الزهد بمعان مختلفة، فبعضهم قال:

« **الزهدُ تَرْكُ حُبِّ المنزلة** ».

وقالت طائفة:

« **الزهدُ تَرْكُ راحة النفوس من جميع ما تستريح إليه** ».

وقالت طائفة:

« **الزهدُ تَرْكُ ما شَغَلَ عن الله** ».

وقالت طائفة:

« **الزهدُ رَفْضُ الدنيا وقِصَرُ الأمل** ».

وقالت طائفة:

« **الزهدُ الثقةُ بالله** ».

---

(١) سورة الحديد: ٢٣.

وقالت طائفة :

« **الزهدُ الإيثارُ لله وتَرْكُ كلِّ ما شغلَ عن الله** » .

وقالت طائفة :

« **الزهدُ إخراجُ المخلوقين من القلب، وحبُّ الخلوة** » .

ولعل ذا النون كان يرى أن كل هذه التعريفات صادقة ، والواقع أنه لا يتأتى أن يكذِّب الإنسان تعريفاً منها ؛ فكلها موجِّهة إلى الخير ، وإلى الرشد . . بيد أن ذا النون يضيف إليها ـ هنا وهناك ـ توضيحاً جديداً لبعض زواياها . . ولقد قال :

« **اعلموا أن صفةَ الزاهدِ مَنْ لم يطلبِ المفقودَ حتى يفقدَ الموجودَ** » .

وقال :

« **سُلِبَ الغِنَى مَنْ حُرِمَ الرضا، ومَنْ لم يُقنعه اليسيرُ افتقرَ فى طلب الكثير** » .

وقال :

« **مَنْ وثقَ بالمقادير لم يغتمّ** » .

وقال :

« **من عرف الله رَضِىَ بالله وسُرَّ بما قَضَى الله** » .

وقال :

« **عليك بالقصد ، فإن الرضا بقليل الرزق يزكّى يسيرَ العمل** » .

ومهما يكن من أمر الزهد ، ومهما يكن من منزلته الرفيعة فى التقوى ، فإنه ليس إلا مرحلة فى الطريق .

يقول ذو النون عن الزهّاد :

« الزُّهَّاد مُلوك الآخرة ، وَهُمْ فقراء العارفين » .

ومرة أخرى يقول :

« وَهُمْ مساكين العارفين » .

الزهد مرحلة ، إنه مرحلة ضرورية ، وهو يُسْلِم إلى التوكل .

التَّوكُّل :

والتوكل من المقامات السامية ، ولقد وعد الله سبحانه أن يكون حَسْبَ المتوكلين ، فقال :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(١) .

ويشرح ذو النون بعض جوانب التوكل فيقول ـ كما رواه يوسف ابن الحسين ـ :

« إن الله خَصَّ أهل ولايته بالانقطاع إليه، ليعرِّفهم فضله وإحسانه فانصرفت هموم الدنيا عن قلوبهم ، وعَظُمَ شُغْلُ الآخرة فى صدورهم ، لما ركبها من هيبة ربهم ، فألزموا قلوبهم العبودية ، وطرحوا أنفسهم فى ساحة التوكل » .

قال الله تعالى :

﴿ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ ﴾(٢) .

« فالمتوكل على الله قد اكتفى ـ بعلمه بالله ـ عن الاشتغال بغيره ؛ حتى اتصل خوفه ورجاؤه بالله ، لأنه لا مانع ولا معطى إلا الله ، فَلِمَ ترغب عن الله بجهلك ؛ فتخضع لمن دونه عند تخويف الشيطان ؟!..

(١ ، ٢) سورة الطلاق : ٣ .

واعلم أن أَخَصَّ المتوكلين عليه ، يحجب عنهم كل آمنة، فهم ينظرون إلى الله تعالى ، ولا يأملون غيره ، فقد حجب قلوبهم عمن سواه ، بما يرجون من إحسانه ، واستغنوا بذكره عن ذكر غيره ..

واعلم أنك لا تكون متوكِّلاً حتى تصفو من كل مالك، ولا ترى إلا الله وحده ، ولا تقدر أن تفر من رزقك ، كما لا تقدر أن تفر من الموت .. أما سمعت الله يقول:

﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ ثُمَّ رَزَقَكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾(١) .

فاقطع الاشتغال بذكر الأسباب من قلبك،واعلم أن الله يرزقك بسبب وبغير سبب ، ألا ترى أنه وعدك أن يرزقك ، وغيَّب عنك علمه ، ولو احتلتَ ـ بكل حيلة ـ أن يأتيك قبل وقته أو بعد وقته لم تقدر على ذلك فيما قصد لك ، لا يمنعك غيره ».

« والتوكل يزيد وينقص مثل الإيمان ».

أما قوله :

« فاقطع الاشتغال بذكر الأسباب من قلبك » . . فإنه هو وما ماثله من التعبيرات التى تتحدث عن التوكل ، قد أثار الكثير من سوء الفهم، ومن الجدل الناشئ عن سوء الفهم .

إن رسول الله ﷺ وكبار الصحابة من أمثال أبى بكر ﷺ ، وعمر، وخالد بن الوليد، وأبى عبيدة بن الجراح، وسعد بن أبى وقاص ﷺ أجمعين وغيرهم ، كانوا من كبار المتوكلين على الله سبحانه ، وكانوا ـ وعلى رأسهم الرسول ﷺ ـ يتخذون لكل أمر

(١) سورة الروم : ٤٠ .

عدته، فى الحرب، وفى السعى على المعاش، وفى تدبير الأمر الذى يوكل إليهم.

وكل ذلك اتِّباعًا لتوجيهات القرآن الكريم:

﴿ فَامْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾(١).

﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ ﴾(٢).

﴿ يَضْرِبُونَ فِى الْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ ﴾(٣).

لقد اتخذ أسلافنا رضوان الله عليهم الأسباب لكل أمر، والعدة لكل حادث... ولكنهم لم يعتقدوا - فى يوم من الأيام - أن الأسباب هى الفاعلة، إنها ليست إلهاً، والفاعل الحق هو الله سبحانه:

ومن هنا كان:

« إذا سألتَ فاسْألِ الله، وإذا استعنتَ فاستعنْ بالله ».

إن الأسباب ليست مؤثرة بنفسها، وكل أمر مرجعه إلى الله:

﴿ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ﴾(٤).

إن الصالحين يتخذون لكل أمر عدته، ولكنهم لا ينسون أن الفاعل هو الله، إنهم لا ينسون الله فى المبدأ.. فهو الموفِّق، ولا ينسون الله فى الوسط.. فهو الميسِّر، ولا ينسون الله فى الآخر.. فإليه المصير:

---

(١) سورة الملك: ١٥.
(٢) سورة الأنفال: ٦٠.
(٣) سورة المزمل: ٢٠.
(٤) سورة هود: ١٢٣.

﴿ أَفَرَأَيْتُم مَّا تُمْنُونَ (٥٨) أَأَنتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ (٥٩) نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمُ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ (٦٠) عَلَىٰ أَن نُّبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ (٦١) وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَفَرَأَيْتُم مَّا تَحْرُثُونَ (٦٣) أَأَنتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ (٦٤) لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ (٦٥) إِنَّا لَمُغْرَمُونَ (٦٦) بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ (٦٧) أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ (٦٨) أَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنزِلُونَ (٦٩) لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ (٧٠) أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ (٧١) أَأَنتُمْ أَنشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنشِئُونَ (٧٢) ﴾[1] .

﴿ فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) ﴾[2] .

وانظر معى إلى قوله تعالى :

﴿ قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴾[3] .

وآيات الجهاد فى القرآن ، وآيات العمل ، وآيات كسب الرزق . . إن كل ذلك حث على الأخذ بالأسباب .

---

(١) سورة الواقعة : ٥٨ ـ ٧٢ .
(٢) سورة عبس : ٢٤ ـ ٣١ .
(٣) سورة التوبة : ١٤ .

ومع ذلك فإن السبب الأول والعامل الأخير مردُّه إلى الله.

ولقد كافح رسول الله ﷺ كفاح الأبطال متخذاً الأسباب فى الصغير والكبير من ألوان كفاحه، وكان فى كل خطوة من خطواته معتمداً على الله تعالى.

وفى ضوء ذلك ينبغى أن نفهم فكرة التوكل عند الصوفية.

أما ثمرة التوكل.. فإنها الاطمئنان إلى النتائج، وكأن العبد يقول: يا رب، هأنذا قد بذلت كل ما أستطيع بوسائلى التى أملكها، لم أقصِّر فى ذلك، والنتيجة إليك وأنت الحكيم الرحيم، عليك توكلت وإليك أنيب، إنى واثق فى حكمتك، مطمئن إلى رحمتك، راضٍ بقضائك.

ويقول ذو النون فى التوكل:

« من توكَّل وثق، ومن تكلَّف ما لا يعنيه ضيَّع ما يعنيه ».

وسأله رجل فقال:

ـ يا أبا الفيض، ما التوكل؟

فقال له:

« خَلْعُ الأرباب، وقَطْعُ الأسباب ».

فقال له: زدنى فيه حالة أخرى؟

فقال:

« إلقاءُ النفس فى العبودية، وإخراجُها من الربوبية ».

وإذا صدق التوكل أسلم إلى الرضا..

الرِّضا:

والرضا هو التسليم الكامل القلبى لكل ما يأتى عن الحكيم الرحمن . . إنه منزلة :

﴿ **رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾(١) .

ولن تجد بين المسلمين من لا يعترف بأن الرضا مقامٌ سام، وأنه المقام الذى يجب أن يكون عليه كل مسلم، وذلك أن كل مسلم يعترف بأن الله أحكم الحاكمين ، وأنه أرحم الراحمين ، ومن كان كذلك فلابد من الرضا بقضائه .

وقد يجد الإنسان من يجادل فى مقام الزهد، أما فى مقام الرضا فلا تجد ـ نظريًا ـ من يجادل فيه، بيد أن واقع الناس يختلف عن نظرياتهم ؛ فواقع الناس هو عدم الرضا، وكل صغيرة وكبيرة إنما هى محل شكوى، وقليل جدًا من يقول فى كل أحواله : الحمد لله .

وإذا قالها فيما يرضيه فإنه لا يقولها فيما لا يتفق مع هواه .

وإن لذى النون ـ عن مقام الرضا ـ الكثير من النفائس ، إنه يقول :

« **طُوبَى لمن أَنْصَفَ رَبَّهُ عز وجل** » .

قيل : وكيف ينصف ربَّه ؟

قال :

«يقرُّ له بالآفات فى طاعته،وبالجهل فى معصيته، وإنْ آخَذَه بذنوبه رأى عدله ، وإن غفر له رأى فضله ، وإن لم يتقبل منه حسناته لم يره

---

(١) سورة المائدة : ١١٩ .

ظالماً لما معه من الآفات ، وإن قبلها رأى إحسانه لما جاد به من الكرامات » .

ويقول :

«لم يحب الله من لم يَرْضَ بقدره،ولم يَرْجُ الله من لم يثق بقسمه» .

وقال :

« مَنْ وثق بالمقادير لم يغتمّ ».

وعن يوسف بن الحسين قال : سمعت ذا النون يقول :

« من قال: لو...لكان ، فقد وَلَّى الأمر غير الله » .

فإذا استمر المتصوف فى مقاماته مع « الذكر » أسلمه ذلك إلى معرفة الله بالله .

المعرفة :

وذو النون يقسِّم المعرفة إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول:

حظ مشترك بين عامة المسلمين .

القسم الثانى:

معرفة خاصة بالفلاسفة والعلماء .

القسم الثالث:

وهو العلم بصفات التوحيد خاص بالأولياء الذين يرون الله بقلوبهم .

ولقد سئل ذو النون عن كمال العقل وعن كمال المعرفة فقال :

« إذا كنت قائماً بما أُمرت،تاركاً لتكلُّف ما كُفيت، فأنت كامل العقل. وإذا كنت بالله ـ عز وجل ـ متعلقاً ، وغير ناظر إلى سواه من أحوالك وأعمالك ، فأنت كامل المعرفة » .

أما أغلب الأحوال التى استعبد الله سبحانه بها العارف ، فهى بحسب رأى ذى النون :

*** رؤية كل شىء منه.**

*** ورجوعه فى كل شىء إليه.**

*** وسؤاله إياه كلَّ شىء .**

والعارف ـ كما يقول ذو النون ـ لا يلزم حالة واحدة ، إنما يلزم ربه فى الحالات كلها .

أما عبادة العارفين ، فعنها يقول :

« إن لله عبادًا عبدوه بخالص من السِّرِّ فشرَّفهم بخالص من شكره، فهم الذين تمرُّ صحفهم مع الملائكة فَـرْغَى ، حتى إذا صارت إليه ملأها لهم من سرٍّ ما أسَرُّوا له.

إن حظ العارفين فى الأشياء « هو » .. ومن أجل ذلك : لا يبالون ما فاتهم،مما هو دونه،والعارف فى كل يوم أخشع؛لأنه كل ساعة أقرب» .

وسئل ذو النون : بِمَ عرف العارفون ربهم ؟

فقال :

« إن كان بشىء فبقَطْع الطمع ، والإشراف منهم على اليأس ، مع التمسك منهم بالأحوال التى أقامهم عليها، وبذل المجهود من أنفسهم ، ثم إنهم وصلوا ـ بعد ـ إلى الله بالله » .

وقال :

« إن العارف استغنى بربه.. فمَنْ أغنى منه ؟ وورَّثه ذكره، وأناخه بفنائه : فاستأنس به » .

أما رسالة العارفين فهى :

*** نشر « لا إله إلا الله » فى مجالس الذاكرين.**

*** وتفريج كُرَب التوابين.**

*** والدلالة على الله بلسان التوحيد لجميع العالمين .**

ومع كل ذلك فإن لكل قوم ـ كما يقول ذو النون ـ عقوبة، وعقوبة العارف انقطاعه عن ذكر الله .

وإذا ما وصل الإنسان إلى « المعرفة » فقد أصبح صوفياً .

*** وهنا يمكن أن نتساءل:**

ـ إذا ما وصل إلى المعرفة هل يتأتى أن ينتكس ؟

ـ أيمكن أن ينتكس الصوفى فيصبح من أهل الدنيا ؟

عن ذلك يقول ذو النون :

« ما رجع مَنْ رجع إلا من الطريق ، ولو وصلوا إليه ما رجعوا .. فازهدْ فى الدنيا تَرَ العجب » .

إن العارف لا ينتكس ؛ لقد قطع المقامات التى تربطه بالدنيا، إنه أصبح ربانياً، وأصبح قلبه خالياً مما سوى الله سبحانه، إنه أصبح فى سعادة بالله، أو أصبح ـ على حد تعبير ابن سينا ـ مبتهجًا بالله، إنه وصل إلى الحالة التى يقول فيها الصوفية :

« نحن فى سعادة لو عَلِمَها الملوك لجَالَدُونا عليها بسيوفهم » .

إنهـا السـعـادة التى آثرها إبراهيـم بن أدهم ﷺ على مَـلاذِّ الدنيـا كاملة موفورة، وإنها السعادة التى آثرها الفضيل بن عياض على حياة الفُتُوَّة والشطارة، وأمجاد القوة والغلبة، وهى السعادة التى يؤثرها كل من وصل إليها على ما عداها .

أينتكس ؟ . . كلاَّ وحَاشَ لله أن ينتكسوا من وصلوا إليه .

إن مقـام المعرفة هو مـقام الواصلين، وعن هذا المقام ينبثق مـقام المحبة .

المحبة :

يقول ذو النون :

أموتُ..ومـا ماتتْ إليكَ صَبَـابتى ولا رويتْ من صـرفِ حـبكَ أوطارِى
مُنَاى المنى كل المـنى..أنتَ لى مُنًى وأنتَ الغِنَى كل الغِنَـى؛ عندَ إقتـارى
وأنت نُهَى سُـؤْلى وغايةُ رغـبتى وموضعُ شكـوايَ ومكـنونُ إضمارِى
تَحَمَّـلَ قلبى ـ فيكَ ـ مَـا لا أبثُّهُ وإن طالَ سقمى فِيكَ أو طالَ إضرارِى
وبينَ ضلوعى مـنكَ مَـا لكَ قـد بَدَا .. ولم يَبْـدُ بـاديهِ لأهلٍ، ولا جَـارِ
أنرتَ الهُـدَى للمهـتـدينَ ولم يكنْ مِنَ النورِ فى أيديهم عُـشْرُ مِـعْشَـارِ
فَنَلْنِى بِعَـفْـوٍ منكَ ؛ أَحْـيَا بقُـربهِ وغِـثْنى بيُـسْرٍ مِنكَ يَـطردُ إعسَـارِى

ويربط ذو النون المحبة والذكر . . فعن سعيد بن عثمان، قال : سمعت ذا النون يقول :

« وَيْحَكَ . مَنْ ذَكَرَ الله على الحقيقة نَسِيَ فى حبه كل شىء ، ومن نَسِيَ فى حبه كل شىء حفظ الله عليه كل شىء وكان له عوضاً فى كل شىء » .

ويَعتبر ذو النون محبة الله سراً لا يجوز اخوض فيه لئلاَّ يسمعه العوام ، وَقد تذاكر القوم المحبة فى مجلسه ، فقال :

« كُفُّوا عن هذه المسألة حتى لا تسمعها النفوس فتدَّعيها » ثم أنشد:

الخَوْفُ أَولَى بالمُسِيءِ ... إذا تألَّه والحَزَنْ

والحبُّ يَجْمُلُ بالتَّقِيِّ ... وبالنَّقِيِّ منَ الدَّرَنْ

وهذا الموقف هو موقف المقدِّس للمحبة الذى يصل تقديسه لها إلى السمو بها حتى عن الحديث عنها .

وكان ذو النون يهيجه السماع ، إذا اتصل بحب الله سبحانه ، فقد حدثوا أنه لما دخل بغداد اجتمع إليه الصوفية ومعهم قوَّال منشد . . فابتدأ ينشد :

صَغيرُ هَوَاكَ عَذَّبنى ... فَكَيْفَ به إذا احْتَكَمَا

وأنتَ جمعتَ من قلبى ... هَوًى قَدْ كَان مُشْتَركَا

أمَا تَرثى لِمُكْتَئِبٍ ... إذا ضَحِكَ الخَلِيُّ بَكَى

فانتشى ذو النون ، ومن شدة نشوته سقط على وجهه وظل الدم يقطر منه وهو لا يدرى .

ولحب الله على الحقيقة علامات منها ما حدَّث به محمد بن أحمد ابن عبد الله بن ميمون قال : سمعت ذا النون يقول :

« قلْ لمن أظهرَ حُبَّ الله : احذرْ أن تذلَّ لغير الله ، ومن علامة المحبِّ لله ألاَّ يكون له حاجةٌ إلى غير الله ».

ومنها ما حدث به سعيد بن عثمان قال : سمعت ذا النون يقول :

« من علامة المحبِّ لله تَرْكُ كل ما شغلَ عن الله : حتى يكون الشغل كله به له »(١).

ويصف ذو النون مدى تعلق المحبين بربهم فيقول :

« خَوفُ النار إذا قِيْسَ إلى خوفِ القَطع عن المحبوب ، كقطرة الماء تُقذف فى أعظم المحيطات ».

الـــوُدُّ :

وعن المحبة تنبثق أحوال عدة ، فعنها ينبثق حال « الود » وهو حال من الحالات الشريفة السامية ، ولقد سمى الله نفسه : الودود ، ويقول على لسان أحد رسله :

﴿ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴾(٢).

والصوفية كثيراً ما يلجأون إلى هذا الاسم الشريف فى دعائهم ، ومن ذلك قول شاعرهم :

ومُنَّ عَلينا يا ودودُ بجَذبةٍ بِها نَلْحَقُ الأقوامَ مَنْ سَارَ قَبْلَنا

وعن الود يقول ذو النون :

« الحب لله عامٌّ ، والودُّ لله خاصٌّ : لأن كل المؤمنين يَذوقون حُبَّهُ ويَنَالونه ، وليس كل مؤمن يَنالُ وُدَّه » . .

---

(١) أخرجه البيهقى فى «الزهد». (٢) سورة هود : ٩٠ .

ثم أنشأ يقول :

مَـنْ ذاقَ طـعـمَ الـوداد هَجَـر جـمـيعَ العـبـاد
مَـنْ ذاقَ طـعـمَ الـوداد خَـلَّـى لـذيـذَ الرُّقاد
مَـنْ ذاقَ طـعـمَ الـوداد سَلَـى طريـقَ العـبـاد
مَـنْ ذاقَ طـعـمَ الـوداد أنـسَ بـربِّ العـبـاد

وعن المحبة ينبثق حال الأنس بالله . .

الأُنْـــس :

ويقول ذو النون عن ذلك :

« الأنس بالله من صفاء القلب مع الله ، والتفرُّد بالله : الانقطاع مِنْ كل شيء سوى الله ».

وفى تاريخ ابن عساكر عن أحمد بن قطن بن أبى قطن ، قال :

سئل ذو النون ـ وأنا حاضر عنده ـ :

ـ متى يجد العبد حلاوة الأنس بالله عز وجل ؟

قال :

« إذا قَطَعَ العلائق، ورَفَضَ الخلائق، وكـان مِنْ أهل الحقائق، وعَمِلَ بالرقائق ، فحينئذٍ ينجو من البَوائق ».

وقال :

« إذا أحبَّ القلبُ الخلوةَ، فقـد أوصله حبُّ الخلوة إلى الأُنس بالله ، ومَنْ أنِسَ بالله اسـتوحشَ من غـير الله ، فلله دَرُّ قلوبٍ أنسـتْ بجلال الله، وارتـعدتْ فزعاً لهيبته ».

وعن البرقى قال : سمعت ذا النون يقول :

« الأُنس بالله نورٌ ساطع ، والأُنس بالخَلْق غَمٌّ واقع » .

ولقد وصل ذو النون بالأنس بالله إلى منزلة يقول عنها :

« أَدْنَى منازل الأنس أن يُلْقَى فى النار فلا يغيب عن مأموله » .

الشـــوق :

أما عن الشوق فيقول ذو النون :

« الشَّوقُ أعلى الدرجات والمقامات ، إذا بَلَغَهُ اسْتَبطأَ الموتَ شوقاً إلى ربه ، وحباً للقائه والنظر إليه » .

وعن أحمد بن يوسف قال :

سئل ذو النون عمن استحق الاشتياق ، فقال :

«إذا استحقَّ الاشتياق قَرُبَ من باب الخَلاَّق،وشربَ مِنْ كأسِ المذَاق، فَشَاقَ واشْتَاق » .

وهذه كلمات تلقى بعض الضوء على ما سبق أن ذكرناه فى باب التصوف :

« سأل أبو عبد الله بن سهل ذا النون : قال : متى أتوكل ؟

قال :

اليقين إذا تَمَّ سُمِّى توكُّلاً.

قلت : متى يتم حبى لربى ؟

قال :

إذا سَمُجتِ الدنيا فى عينيك ، وقَذَفْتَ أملك فيها بين يديك.

قلت : فمتى أخاف ربى ؟

قال :

إذا سَرَّحْتَ بصرك فى عظمته ، ومَثَّلْتَ لنفسك أمثال نقمته.

قلت : فمتى يتم صومى ؟

قال :

إذا جوَّعتَ نفسك من البغضاء ، وأَمَتَّ لسانك من الفحشاء.

قلت : فمتى أعرف ربى ؟

قال :

إذا كان ما أسخطه عندك أمرً من الصبر.

قلت : فمتى أشتاق إلى ربى ؟

قال :

إذا جعلتَ الآخرة لك قراراً ، ولم تُسمِّ الدنيا لك مسكناً ودارًا.

قلت : فمتى أشتد فى بغض الدنيا ؟

قال :

إذا جعلتَ الدنيا طريقَ مخافةٍ لا تلتفتُ إلى ما قطعتَ منها، وجعلتَ الآخرة ساحةً مأمونةً لا تأمن إلا بالنزول فيها .

قلت : فمتى أحب لقاء ربى ؟

قال :

إذا كنت تقدم على حبيب ، وتصبر عن أمر قريب.

قلت : فمتى أستلذ الموت ؟

obeikandl.com

قال :

إذا جعلتَ الدنيا خلفَ ظهرك ، وجعلتَ الآخرة نُصْبَ عينيك.

قلت : فمتى أتَّقى شهوات مطاعم الأرض ؟

قال :

إذا خالطَ قلبك الملكوت ، ومُزج فى سَرائر الجَبروت.

قلت : فمتى تطيب معرفتى ؟

قال :

إذا استوحشتَ من الدنيا واشتدَّ فرحُك بنزول البلاء.

قلت : فمتى أستقبح الدنيا ؟

قال :

إذا علمتَ أن زينتها فساد كل معنى ، وأن محاسنها تُفضى إلى كل حسرة.

قلت : فمتى أكتفى بأهون الأغذية ؟

قال :

إذا عرفتَ هلاك الشهوات ، وسرعة انقطاع عذوبة اللذَّات.

قلت : فمتى القنوع التام ؟

قال :

إذا كان زخرف الدنيا عندك صغيراً ، وكان خوف الآخرة لك ذكرًا.

قلت : فمتى آمر بالمعروف ؟

قال :

إذا كانتْ شفقتُك على غيرك ، وخالفتَ العباد لمحبة ربك.

قلت : فمتى أُوثر الله ولا أُوثر عليه سواه ؟

قال :

إذا أبغضتَ فيه الحبيب ، وجانبتَ فيه القريب.

قلت : فمتى أفزع إلى ذكره ، وآنس بشكره ؟

قال :

إذا سررتَ ببلائه ، وفرحتَ بنزول قضائه » .

الخلـــوة :

والحديث عن «التصوف» يكون قاصراً ؛ إذا لم نتحدث عن «الخلوة» .

وما من شك فى أن الخلوة فترة من الزمن ضرورية للمريد ، إنها تصرفه إلى الله صرفاً كليّاً ؛ فتصفو تُربته ، ويستنير قلبه بالذكر المتوالى ويرى فى خلوته وتأملاته الدنيا على حقيقتها «متاع الغرور» ويقترب من الله فى خلوته بسجوده وبصفاء سريرته .

ولقد كتب السهروردى فى كتابه « عوارف المعارف » فصولاً جميلة عن الخلوة وشروطها وأذكارها ، وكتب غيره عنها .

والناس ـ عادة ـ يستجمُّون جسمانياً كل عام ، وإن استجمامهم الروحى ـ ولو أسبوعاً واحداً ـ أوجب لهم وأفضل أثراً لمجتمعهم ، وأهدى إلى الرشد .

ويقول ذو النون عن الخلوة :

« لم أرَ شيئًا أبعثَ لطلب الإخلاص من الوحدة ؛ لأنه إذا خَلاَ لم يَرَ غير الله، فإذا لم ير غيره لم يحركه إلا حكم الله. ومن أحب الخلوة فقد تعلَّق بعمود الإخلاص ، واستمسكَ بركن كبير من أركان الصدق، ومن تَزَيَّنَ بعمله فحسناته سيئات » .

ولكن ذا النون حينما تمكَّن نور الإخلاص من نفسه قال :

« ليس من احتجبَ عن الخَلْق بالخلوة كَمَنِ احتجبَ عنهم بالله ».

سر الملكوت :

فى هذه الكلمة يبين ذو النون سر الملكوت ، وهى كلمة من النفاسة بحيث رأينا أن نختم بها فصل التصوف ؛ حتى تكون خاتمة لهذا الفصل . .

يقول أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن هاشم :

قلت لذى النون :

ـ كم الأبواب إلى الفطنة ؟

قال :

« أربعة أبواب: أولها الخَوفُ ، ثم الرَّجاءُ ، ثم المحبَّة ، ثم الشَّوق.. ولها أربعة مفاتيح:

فالفَرْض مفتاح باب الخوف ، والنافلة مفتاح باب الرجاء ، وحبُّ العبادة مفتاح باب المحبة ، وذكر الله الدائم بالقلب واللسان مفتاح باب الشوق ، وهى درجة الولاية.

فإذا هممتَ بالارتقاء فى هذه الدرجة ، فتناولْ مفتاح باب الخوف ، فإذا فتحتَه اتصلتَ إلى باب الفطنة مفتوحًا لا غلقَ عليه ، فإذا دخلتَه فمَا أظنكَ تطيق ما ترى فيه ، حينئذ يجوز شرفُك الأشرافَ ، ويعلو مُلْكُكَ مُلْكَ الملوك.

واعلمْ ـ يا أخى ـ أنه ليس بالخوف يُنال الفرض ، ولكن بالفرض يُنال الخوف، ولا بالرجاء تُنال النافلة، ولكن بالنافلة يُنال الرجاء، كما أنه ليس بالأبواب تُنال المفاتيح ، ولكن بالمفاتيح تُنال الأبواب .

واعلمْ أنه مَنْ تَكَامَلَ فيه الفَرْض فقد تَكَامَلَ فيه الخوف ، ومن جاء بالنافلة فقد جاء بالرجاء، ومن جاء بمحبة العبادة فقد وصل إلى الله، ومن شَغَلَ قلبه ولسانه بالذكر : قَذَفَ الله فى قلبه نور الاشتياق إليه، وهذا سرُّ الملكوت فاعْلَمْهُ واحْفَظْهُ حتى يكون الله ـ عز وجل ـ هو الذى يناوله من يشاء من عباده ».

* * *